حول كتاب جديد

بقلم الاب دميان رميا
وكيل شركة «فيداس» البابوية، ومراسل
جريدة «لاكروا»

روحاً مباركاً — يكاد يكون نهضة — يتغلغل اليوم في صدور الأدباء. ويحدوهم الى العناية بالتاريخ الذي لا يزال، رغم جهود المتقدمين، موجزاً ومنفرط العقود. أجل ان بكورة هذه النهضة تغذي فينا شعور التفاؤل والأمل، اذ ان كثيرين شرعوا ينشئون تواريخ ونبذات لمدنهم وقراهم، فيتكوّن منها التاريخ الشامل. وقد ظهر مؤخراً «تاريخ الماقورة» للاب لويس الهاشم، ينشر صفحة قيمة عن بلدته العريقة في القدم.

. . .

تقع الماقورة في سفح جبل عالٍ بصرود بلاد جبيل، شمالي فتوح كسروان وغربي بلاد بعلبك؛ تراها، وهي رابضة بين سلسلة من الجبال يعلو طرفيها جبلا موسى والقرن، اقوى مناعة من حصون واستحكامات المدن الحديثة.

تفاخر هذه البلدة بآثار القرون الخوالي المبعثرة فيها، هنا وهناك، وبسكانها ذوي النفوس الوثابة والقلوب الجريئة، المحافظين على عقيدة اجدادهم وتقاليدهم القومية الموروثة.

كانت اراضيها الشاسعة مغطاة في القديم بغابات كثيفة تتلاشى اشعة الشمس على اطرافها المتلاحمة، وانما الطبيعة أبت ان تبقي عليها، فزلزلت زلازلها وابتلعت بطون الوديان والبطاح مرات كثيرة القسم الاوفر من آجام الأرز واللزاب والدفران . . . وان فؤوس البشر ظلت حتى الزمن القريب تقطع منها الاخشاب الثمينة.

نعم ان من اخشاب هذه الجبال شيدت المزارات البحرية الاولى والمعابد والقصور : كسفن الفنيقيين والمصريين وسواهم ، وهيكل سليمان ، وقصور الفراعنة . . . [1]

وكانت كهوفها ومغائرها العديدة ، قبل ان تعرف حضارة البناء ، اي في العصور الظرانية ، مسكناً لبني الانسان ، وقبل الانسان ملجأ للكواسر والضواري . [2]

وكان الباقوريون حتى اواخر القرن التاسع عشر يتحصنون بها من غارات جيرانهم ومداهمات الغزاة .

. . . .

لقد مرّ بالباقورة كثير من الاعاجم ، لاننا اذا ما توصلنا الى تفهم ضروب آثارها وكتاباتها وحلّ رموزها ، نجزم بان طيطوس قيصر مرّ بها لمّا جا سورية في حرب « اليهودية » وكذلك ادريانوس ودومسيانوس قيصر وغيرهم من قياصرة الرومان ، وكلهم اصدر اوامره الصارمة الى سكانها . وقد عُثر — يقول المؤرخ — على مخطوطات قديمة تثبت ان الرومان قد منحوا الحقوق الرومانية بعض الباقوريين ، ومن لم يشمله هذا المنح كان يؤدي الضرائب الثلاث : الاعناق ، والخراج ، والمكوس . ويقول التاريخ انه لمّا تحكم ملوك الاروام بهذه البلاد واعتسفوا وكانت المواقع الدينية الملطخة بالدماء البريئة ، تطاير الى الباقورة المنكوبون من سهول حماة وحلب وقنسرين ، وهاجر اليها الجراجمة والأنباط وفصائل المردة ، لان مراكزها الحصينة وقربها من السهول كانت تساعد على الغزو والحضر .

وكم حارب بنوها واللاجئون اليها — خصوصاً المردة — مفارز الاروام وعصابات النهب والسلب وفازوا بها ، وظلوا على هذه الحال حتى الفتح العربي اذ تحول التمرد الى انصياع للقوة ، وبدأت شمولهم بالاستكانة والتضاؤل ، ولفتهم الآرامية السريانية بالتلاشي والتقلص [3] لاضطرارهم الى معرفة لغة الفاتحين

---

١) و٢) تاريخ الباقورة صفحة ٩ الى ٥٩

٣) صفحة ٥٩ — ٦٣

الحاكمين الذين ارادوا ، قبل ذلك ، تغيير العقائد الدينية ، مما جعل البلاد تتمرد غير مبالية بقوة الفارض وقساوة احكامه . . . وقد تجاوزت اصداء الاضطهاد والتنكيل في هذه المرة حدود الشرق الى اوربة فاسرع الفرنجة المسيحيون لنصرة الضعفاء ، وربما لغاية اخرى ايضاً .

واذا ما ذكرنا الصليبيين سجلنا لابناء العاقورة يداً بيضاء ، لانهم تفانوا اكثر من سواهم في مقاومة المظالم وانخرطوا جميعاً في صفوف الافرنج وأمدوهم ما استطاعوا بالذخيرة والزاد .

خفقت اعلام هؤلاء زمناً طويلاً فوق اقطار الشرق ، فشيدوا وعمروا القصور والحصون ، وقد عززوا الحامية في العاقورة ، وخاصة في حصن المنيطرة . وقد ابتنت في ايامهم اديرة كثيرة ، ودُقت النواقيس النحاسية عوضاً عن الحديدية والخشبية .

قلنا ان العاقوريين اشتركوا مع الافرنج ، فظلوا من السنة ١٠٩٩ يحاربون الاعجام والبغداديين وأهل الشام واعوانهم الى ان زحف في السنة ١١٦٥ نور الدين زنكي ، سلطان البلاد الشامية ، فكسرهم بعد مقاومة عنيفة ، واستولى على حصن المنيطرة[1] . . . ولم يفلّ هذا الاستيلاء عزم الافرنج وانصارهم بل تابعوا القتال الى سنة ١٢٤٥ .

. . .

وأمّ هذه البلاد بعد الصليبيين مماليك مصر واجتاحوها حتى الشمال ، فتجند الطرابلسيون ليمنعوهم من المرور ببلادهم ، واتصل بأهل العاقورة عزم مواطنيهم ، فهاجموا جيش المماليك معاً ليذودوا عن حياض وطنهم ، وبعد معارك حامية الوطيس هزموا المصريين شرّ هزيمة[2] .

وكذلك لما أنذر عسكر محمد علي باشا ، عزيز مصر ، سكان جبيل وأبوا الاستسلام ، فقد وقف العاقوريون في مقدمة الجبيليين اصدّ غارة المصريين ، فدارت رحى القتال اياماً عُقدت لهم في النهاية راية النصر[3] ، فعادوا الى بلدتهم

---

١) تاريخ العاقورة صفحة ٦٣ — ٦٦

٢) » » » ٦٧ — ٧٥

٣) » » » ١٠٩ . . .

يودّون الاستراحة ولكن ...

ولكن الزمان أبى ومالاتهم ، فكأنهم كانوا ليشتركوا في جميع اشواط العصور. وأثار روحٌ خبيث سنة ١٨٦٠ دروزَ هذه البلاد على نصاراها في الجنوب، وامتدّ لهيب النار الى مقاطعة بعلبك فدهم متاوِلتها الطائفة دون ان ينالوا من أهاليها . استفزّ الأمر أبناء الشمال فهبّوا يريدون القضاء على البعلبكيين ، وكادت النار تصل الى الهشيم لو لم يمانع عقلاء البلاد ، وبالاخص الطائفيون الذين اظهروا وقتئذٍ حكمة وشهامة اذ هوّنوا الامر على احفاد المردة وأمّنوا متاولة كثيرين لاذوا بهم[1]

. . .

في السنة ١٨٦٦ قدم مارًّا بالطائفة يوسف بك كرم فاحتفى به أهاليها كعادتهم في ذلك الوقت وعرضوا عليه المساعدة فأبى شاكرًا ، وكانت الحكومة مشددة في ان لا يساعده احد او يشدّ أزره ، فأوقفت بعض زعماء البلدة لايوانهم ذلك « الثائر » . ولكنها ، اي الحكومة لم تلبث ان أخلت سبيلهم لترسل جندها على حين غرّة ، غير ان الامر السري نُقل فورًا الى الطائفيين ، فأخلوا بيوتهم واعتصموا بالمغاور . وما وصل العسكر ليلًا حتى اصلاه الرجال نار بنادقهم وباغتته النساء بدهورة الصخور والحجارة فاضطر الى الانهزام والتقهقر[2].

. . .

ان الطائفة التي كانت من كبريات المدن في القرون الاولى ، وقبلة الغزاة ومحط رحال الفاتحين ، ومركز الخرافات الوثنية، أمست فيما بعد مهدًا للمسيحية وأمّا نشرت ابناءها في جميع نواحي سورية ولبنان ، وظلت كرسيًا لاساقفة الموارنة منذ فجر النصرانية حتى عقد المجمع اللبناني في السنة ١٧٣٦

كان الطائفيون الوثنيون يعبدون المتهم كالشمس والقمر والنجوم في الرياض والغابات ويقرّبون الضحايا على المشارف وقنن الجبال لتستنشق الالهة رائحة ضحاياهم الذكية ! . . . ثم اقاموا التماثيل لجوبيتر (اله الصواعق) وللأسد والنسر

---

١) صفحة ١١٨ — ١٢٠ ٢) صفحة ١٢١ — ١٢٣

(رمزي القوة والعظمة) وشيدوا المعابد للزهرة وايولون وادونيس ... حتى ذر نجم الناصري واكتسحت انواره ظلام الخرافات والعقائد الباطلة .

* * *

ان هـذا الملخص يشغل بحق الجزئين الاولين من التاريخ اي نيفاً ومئتي صفحة، وقد خص حضرة المؤلف الخمسمائة الصفحة الاخيرة بأنساب الاسر ، المقيمة والنازحة والمتفرقـة ، فانك لتجد سلسلة نسب لكل من قطن الماقورة ولو ربع جيل .

ولا عجب من وفرة اسرها ، فقد كانت في القدم موئل المضطهدين وملاذ المنكوبين ، وهمزة وصل بين الشواطئ الفينيقية والبلاد السورية ، كما كانت انطاكية طريق الاتصـال الكيليكيا بهذه الاصقاع من مياه المتوسط حتى داخلية سورية .

وانك لترى في هذا التاريخ صورة مصغرة للتاريخ العام لان المؤلف أجمل احياناً واطال فأفاد لانه :

ا ـــ جعل من التاريخ مقدمات وجيزة ، واستشهد بمؤلفات ثقة في معظم الفصول وفي حقيقة آثار بلدته فأوثق صلة نبذته التاريخية .

ب ـــ اوجد فائدة اعم في تلخيص الحوادث والحروب العامة ليرتكز على قواعد موطدة في تدوين تاريخه المحلي .

ج ـــ اقتطف من كل ذلك دليلاً وحجة يزيلان كل ريب من النفوس بل يدفعانها لمطالعة « المؤلف » بلذة واطمئنان .

فالمؤرخ قد قضى وقتاً ، ولا شك طويلاً ، وبذل جهوداً جمة في التنقيب عن الوثائق والحجج والادلة ، ان في ما كتب عن هذه البلاد او في استطلاع آراء ذوي الاختصاص عندنا ، حتى استطاع ان يملأ نيفاً وسبعمائة صفحة ، محررة بلغة بسيطة وجرأة في النظريات والاستنتاج لا بأس بها . خلا بعض مستندات زائفة وثلاث صفحات تستوجب الملاحظة :

ا ـــ صفحة بيضاء او سوداء ، وهي التي كان يجب ان تتحلى ببعض الرسوم والرموز او بقايا أثرية قيمة ، لكن شيئاً من ذلك لم يكن سوى « ورقة »

تدل على كتابة قديمة الصقت في بطن التاريخ المذكور ، لا قيمة لها وحدها وكما هي .

٢ً — صفحة متقطعة الاوصال وغير متناسبة وهي ان لا يكون التقسيم او التبويب والاحكام بين حلقات الازمنة والعهود اقل احتباكاً وتعميماً وندرة واكثر دقةً وجلاء ، وان لا يتبسط المؤرخ ويسهب في بعض نقاط اوجزها او مرّ بها مروراً . فهل لضعف الادلة والحكم او لنقص في الحجة والوثيقة ؟! .

٣ً — صفحة زائدة او مزيفة وهي التي نجدها في معظم ما دوّن من مثل هذه التواريخ الجزئية . قد يسيء المؤلفون بها الى التاريخ اذ يتبسطون في ذكر الاحياء ويوجزون في عظام ونوابغ الاموات الذين استحقوا عطف التاريخ . ويؤلم الضمير ان يرى صفحة جليلة تملأ بغير عظمة المتقدمين .

ومع ذلك نثني على كل الجهود التي من شأنها خدمة الآداب التاريخية ونخص مؤلف تاريخ الماثورة[1] الذي ادى لبلدته بل لبلاده وللتاريخ خدمة جلّى . ونتمنى ان يحرص المؤرخون على الجرأة الادبية والحقيقة المجرّدة ، لان التاريخ هو صفحة الحياة المقدسة تتناقلها العصور وتحكم بها لنا او علينا .

١) يباع هذا التاريخ عند السيد يوسف رعب : شارع غورو — طريق النهر